

تصدرها رابطة العالم الإسلامي
مكة المكرمة



الترف وأثره في المجتمع

من خلال القرآن الكريم

بقلم
ناصر بن عبدالله العمار

السنة العاشرة - العدد ١١٨ - العام ١٤١٢هـ - ١٩٩١م

بســـم الله الرحمن الرحيم

﴿وقل ربـي زدنـي علماً﴾

مقـــدمـة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلا هادي له ..

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام .. أما بعد :

فان هذه الدنيا قد قال الحق سبحانه وتعالى فيها : ﴿**إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون**﴾[1] .

فهذا أفضل وصف للحياة والدنيا وأبلغ تصوير لها ، وأوضح دليل على قرب زوالها ، وما هي إلا متعة وتزول ، فعلى الانسان السوي أن يعمل لما بعد هذه الحياة ، ولا يغتر بهذه الحياة وينسى ما خلق من أجله .. قال تعالى : ﴿**وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون**﴾[2] .

فالانسان الغافل في هذه الدنيا هو الخاسر في الدارين ، ولا يحصل الخسران إلا إذا أغرق في الترف ، والناس قد عمت بهم البلوى وأطغتهم النعم ، ونسوا المنعم ، ومن هنا تكمن أهمية هذا البحث ، فإذا علمنا أسباب الترف وآثاره ونتائجه على الفرد والمجتمع فلا شك أن من يريد صلاحه وفلاحه منهم يبتعد عن كل ما يؤدي إلى الترف .

(١) سورة يونس ، الآية ٢٤ .

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

وقد راعيت في هذا البحث أن يكون مكونا من أربعة فصول وخاتمة :

ففي الفصل الأول تطرقت إلى أسباب الترف البارزة .

وفي الفصل الثاني عرّجت على مظاهر الترف البارزة .

وفي الفصل الثالث بيّنت بعضا من النتائج السيئة للترف .

وفي الفصل الرابع ذكرت بعض الأمثلة للمترفين في السابق ، وبعض الأمثلة لمترفي هذا الزمان .

وبعد ذلك ختمته بالخاتمة ، وكانت مشتملة على أهم نتائج البحث ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تمهـــيد

قبل الشروع في بيان أهم أسباب الترف ، لابد من ذكر مقدمة يسيرة نبين فيها قيمة هذه الحياة التي يحصل الاغترار بها ، ومن ثم ينتج عن ذلك الترف .

فقد بين الله في عدد الآيات أن هذه الحياة الدنيا زائلة ، وأنها مؤقتة ، وأنها متاع ، وأنها هشيم تذروه الرياح ، وأنها لا تعدل عند الله جناح بعوضة وأنها .. وأنها .... إلخ .

فلا ينبغي للانسان اللبيب أن يغتر بها وينخدع بزخرفها ، بل عليه أن يأخذ منها بقدر ، وأن يجعلها وسيلة وبلغة إلى الدار الآخرة .

قال الله تعالى : **﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾** الكهف ، الآية ٤٦ .

وقال في آية أخرى في نفس السورة مبينا أن الهدف من الحياة هو العمل الصالح قال تعالى : **﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾** الآية ١١٠ .

وقال تعالى قبل هذه الآية آمرا نبيه بعدم الاغترار بهذه الحياة : **﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾** الآية ٢٨ .

ويكفي حكم الله على المغفل المغتر بالدنيا بأنه متبع هواه وأن أمره فرطا .

فهذه جملة آيات لاشك أنها قد بينت قيمة هذه الحياة الدنيا ، وغيرها كثير .

يقول ابن القيم رحمه الله : سمعت شيخ الاسلام ــ رحمه الله ــ يقول : الزهد ترك مالا ينفع في الآخرة ، والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخره[1] .

وهذا العبارة أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعه .

وبعد ذلك تأتي جملة من التعريفات للزهد ، وكان جامعها تعريف الامام أحمد ــ رحمه الله ــ يقول : في الزهد على ثلاثة أوجه : الأولى : ترك الحرام وهو زهد العوام . والثاني : ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص . والثالث : ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين .

وقد شهد له الشافعي بالامامة في ثمانية أشياء ، أحدها: الزهد .

والزهد ليس بفقد المال ، ولكن بعدم إلهاء المال عن طاعة الله ما حدث لسليمان وداود ، وعلي ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان ، والحسن ، وعبد الله بن المبارك ، والليث بن سعد .

ومن أحسن ما قيل في الزهد قول الحسن وغيره : ليس الزهد في الدين بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة ــ إذا أصبت بها ــ أرغب منك فيها لو لم تصبك .

فهذا من أجمع الكلام في الزهد وأحسنه ، وقد روى مرفوعا[2] .

ثم إن للترف أسباباً كثيرة لا نستطيع أن نحصرها ، لأن منها ما هو أصل في الترف ومنها ما هو تابع لسبب رئيسي .

وقد تتظافر الأسباب في شخص ، وقد ينفرد الانسان بواحد منها .

(١) مدارج السالكين ٢ /١١ ، ١٢ . (٢) المصدر السابق ص ١٣ .

فنجد بعض الناس يملك المال الوفير ، فيحصل به على الترف .

وكذلك الجاه ، فربما يكون لشخص جاه عظيم فيكون سببا في ترفه .

وكذلك القوة والسلطان والجمال والنسب .

وربما يجتمع للانسان أكثر من سبب من الأسباب السابقة .

والمقصود بالترف : مجاوزة حد الاعتدال في التنعم بنعمة أو أكثر من النعم التي يحصل بها الترف .

وعند دراستنا لهذه الأسباب نقسم السبب إلى قسمين :

١ ـــ الاعتدال في النعمة .

٢ ـــ الظلم بها .

أو :

١ ـــ السبب الخيّر . ٢ ـــ السبب السيىء .

الفصل الأول

أسباب الــترف

المـــال :

هذا العنصر .. كما ذكره الله سبحانه وتعالى في التزيل أنه خير في قوله ﴿**وإنه لحب الخير لشديد**﴾ .

وصفه مره أخرى بأنه سبب للطغيان ومن ثم الترف . قال تعالى : ﴿**كلا إن الانسان ليطغى . أن رآه استغنى**﴾ . الآية ٧ العلق .

وفي موضوع آخر يقول : ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**﴾ . الفرقان الآية ٦٧ .

وفي موضوع آخر يقول : ﴿**أن كان ذا مال وبنين ...**﴾ سورة القلم الآية ١٤ .

وفي موضوع آخر يقول : ﴿**وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا**﴾ سورة المدثر الآيتان ١٢ ، ١٣ .

وفي منوضوع آخر يقول تعالى : ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**﴾ الكهف ، الآية ٤٦ .

فهذه الآيات وغيرها تشير إلى السبب السالف . فتارة تصفه بأنه خير ، وتارة تصفه بأنه سبب للطغيان ، أو في الطغيان ، وتارة أخرى تصف هذا المال بأنه ينبغي أن يكون صاحبه معتدلا في انفاقه .

وفي موضع آخر تبين كيف تكون نعمة المال سببا في الطغيان وتستنكر ذلك .

وفي موضع آخر تبين أن هذا المال زينة ، ومعنى ذلك أنها مؤقتة ومصيرها الزوال .

فكيف حدث لهذا العنصر تلك الأوصاف ؟ .. نقول :

١ ـــ المال سبب في الخير :

إن هذا المال وديعة ، وإذا استعمل في وجوه الخير ، ولم يجاوز به

حد الاعتدال في التمتع والانفاق من ملبس ومشرب ، أو ملبس أو سكن أو أثاث أو مركب إلى غيرها من صنوف التمتع فإنه يكون خيرا لصاحبه وللناس أجمعين ، فهو خير لصاحبه ، لأنه اتبع هدى الرحمن ، وابتعد عن ضلالات الشيطان ، واتبع سبيل الهدى وأعرض عن سبل الضلال . وراعى حق الله فيه في العنصرين السابقين في تمتعه وإنفاقه ، وسلك مسلك الصالحين في ترك الاسراف في الانفاق والأكل والشرب . قال تعالى : ﴿**كلوا واشربوا ولا تسرفوا ...**﴾

وقال في الآية السابقة من سورة الفرقان : ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**﴾ .

فبهذا يحصل له الامتنان من الرب سبحانه وتعالى ، وتشمله بركاته ، ويسلمه الله من الجوائح المهلكة ، والبوائق الماحقة ، والعكس بالعكس .

فضلا عن ذلك فإنه يحصل له الدعاء من الناس ، والمحبة له من قبلهم ، فإن الله إذا أحب شخصا حبب الخلق فيه .

ويكثر رزقه ويكثر محبوه ، لأنه لم يستغل هذا المال في ما نهى الله عنه ، فإذا أكل ، أكل طيبا ، وإذا شرب شرب طيبا ، وإذا سكن سكن طيبا ، وإذا ركب ركب طيبا ، وجميع شؤون حياته طيبة ، فهو من الفائزين في الدارين .

هذا الفوز ، وهو التمتع بالحياة ، والذكر الحسن ، هو فوز الدنيا ، أما فوز الآخرة فهو رضوان الله عنه ، ومن رضي الله عنه فقد استحق والله الفوز ، فيسبغ الله عليه من خيره العميم ورزقه الدائم الذي لا ينقطع .

فقد نجح في الامتحان ، وحق للناجح أن يفرح ، وأي امتحان ، وذلك أن المال وغيره من الأسباب امتحان ، فمن اجتازه ضمن

الصلاح في المآل والحال .

أما الخير للناس ، فإنه إذا سلك هذا المسلك ، فإنه يكون في الدنيا قدوة لغيره منّ الله عليهم ، فيعتدلون في سلوكهم ، فيشكرون الله حق شكره قولا وعملا .

ومن جهة أخرى إخوانه من المعدمين فلا تنكسر قلوبهم عندما يرون ما أعطى من مال ومتاع ، ولا يتمنون زوالها عنه ، بل يتمنون له المزيد لأنه قد اتبع منهج الله وأعطاهم حقه فيه .

قال تعالى : ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم**﴾ سورة التوبة ، الآية ٦٠ .

(وقد حثنا المولى سبحانه وتعالى على بذل المال وإنفاقه مراغمة ومقاومة مراغمة لأهوائنا ومقاومة لرغائبنا ، حتى يصبح التزهد زهدا ، والتسخي سخاء ، والتكرم كرما ، والتطبع طبعا ، أليس أفضل الصدقة صدقة الصحيح والشحيح الذي يخشى الفقر ويأمل الغنى ؟ أليس البر هو إيتاء المال على حبه ؟ أو ليس الابرار هم الذين ﴿**يطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً**﴾ الانسان ٨ ، ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ الحشر ٩) .[١]

٢ ــ المال سبب في الطغيان :

إن هذا المال كما كان خيرا في العنصر السابق بسبب اعتدال مالكه ، فإنه يكون سببا في الطغيان إذا جانف صاحبه سلوك طريق

---

(١) من أخلاق القرآن ، للشيخ الدكتور /محمد عبد عبد الله دراز ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

الحق ، ونسي أن الله هو المنعم وأنه الواهب له ، فمن ثمّ أنساه الله نفسه .

فهذا المتاع يكون وبالا وعقابا على صاحبه ، فهو يهلك نفسه في طلبه الدنيا ، ويشغل به أهله وولده ، وقبل ذلك عن ربه ، فما الفرق بينه وبين الآله لا فرق فهو مسلوب الأحاسيس ، منعدم الوجدان ، فاقد للذوق ، وهذه من أنواع العقوبات التي يصاب بها نتيجة الأعراض عن ذكر الله . قال تعالى :

﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا . ونحشره يوم القيامه أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى . أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولى النهى﴾ سورة طه ، الآيات ١٢٤ — ١٢٨ .

فهو مريض بحبسه للمال ، فانظر إلى هذا التوجيه إلى من أمسك خشية الانفاق : قال تعالى : **﴿ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالا وعدّده . يحسب أن ماله أخلده . كلا لينبذن في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة ...﴾** الهمزة ١ — ٦ .

وبالاضافة إلى المرض السابق وهو الشح فنجد أن هناك آية تشير إلى مرض آخر ، وهو التكاثر ، قال تعالى : **﴿ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر . كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون . كلا لو تعلمون علم اليقين . لترونّ الجحيم . ثم لترونّها عين اليقين . ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾** سورة التكاثر .

وفي آية أخرى يصف هؤلاء المترفين بأنهم محبون للمال ، وهكذا يضع القرآن أيدينا على أول مواطن الداء الدوي ومكمن المرض

العضال .. ﴿وتحبون المال حبّا جمّا﴾ الفجر ، الآية ٢٠ .

ها هنا رأس كل خطيئة ، ها هنا رأس كل دنيئة . إنه مرض ذو شعبتين .

شعبة تنخر في نفسية الفرد ، وشعبة تنخر في كيان الأمة والدولة .

فالاسراف في حب المال إذا نبت في قلب امرىء أذلّ عنق صاحبه ، وهوّن عليه كل مهانة في سبيل طلبه ، وقعد به عن كل مكرمة في أسلوب انفاقه ، فأصبح هو السيد المالك ، وأصبح هو العبد المملوك .. من زرع الحرص حصد التنافس والتحاسد ، ثم الشقاق والخصام ، ثم تقطيع الأرحام ، ثم سفك الدماء ، ثم ما شئت من محن تتوارثها الأجيال . والشح مرض وبائي سريع العدوى ...) .

(فإذا تفشى في أمة هذا التنافس في الحرص والشح ، وقف دولاب حركتها ، وتعوق سير نهضتها ، وبدأت الشيخوخة تدب في أعضائها ، وطمعت فيها أعداؤها ، بل غدت نهبا للمطامع وسلعة يسومها كل مشتر وبائع ...) .

ينفخ الشيطان في روح صاحبه ليزين له فاحشة البخل وليجعله من خوف الفقر يقول له : أمسك عليك مالك ، إن المال شقيق الروح وعماد الحياة !!

كلمة حق يراد بها باطل ، فالله لا يأمر أحدا أن يبذل كل ماله ويذر نفسه وعياله عالة يتكففون الناس ، وإنما يريد منا أن ينفق كل من فضل ماله ، على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره ، وذلك ليجعل لنا متعتين وسعادتين ، متعة بالاستغناء عن الغير ، ومتعة بأغناء الغير ...) من خلق القرآن ، د . محمد عبد الله دراز ص ٣٥ ، ٣٦ .

ويقول الشيخ في موضع آخر :

يقول الله تعالى لهؤلاء الذين يمدون أعينهم إلى ما عند غيرهم أنكم في التماس الخير لأنفسكم تتركون الفجاج الواسعة الآمنة ، وتميلون إلى المسارب الضيقة الموحشة ، إنكم تتركون البحر وتستقون من الغدير ، ما لكم ولما في أيدي الناس ، فإنما من عندي نالوا رزقهم وإن أبوابي مفتوحة لكم ولهم . تحولوا عن هذا الطريق فإنه طريق شائك غير مسلوك ، وقد مهدت لكم بدله طريقين مسلوكين ، فولوا وجوهكم شطرهما ، دونكم الأرض الوسيعة جعلتها لكم ميدان الكسب والعمل ، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقي، دونكم السماء الرفيعة جعلتها لكم قبلة السماء والأمل ، فإيّاي فادعوا وفضلي فالتمسوا ...) ص ٤٠ ، ٤١ ، من خلق القرآن . د . محمد عبد الله دراز .

لكن الناس لم يتجهوا إلى أى من الميدانين ، وفتحوا أعينهم على ما رزق الله به عباده .

فلنبدأ بالتوجيهات القرآنية في شأن اكتساب المال ، وهي توجيهات تتناول الكسب من جهات ثلاث من جمعه ووسيلته ومن جهة غايته ومن جهة أسلوبه وطريقته ، ولنقصر حديثنا هذا على جانب الوسائل ...) من أخلاق القرآن . د . محمد عبد الله ذراز ص ٤٦ .

قال تعالى : ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون**﴾ البقرة الآية ١٨٨ .

﴿**وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربوا عند الله**﴾ الروم ٣٩ .

﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم**

نارا وسيصلون سعيرا﴾ النساء ١٠ .

﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ آل عمران ٧٧ .

وبعد أن ذكر الشيخ هذه الآيات في ص ٤٨ ، ذكر أن المعيار الاسلامي في كل شيء هو : قليل طيب مبارك فيه خير من كثير ممقوت لا بركة فيه **﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾** .

وبعد ذلك يذكر الشيخ الجواب عن السؤال السابق ، وهو وسيلة الكسب يقول : (هأنذا أجيبك ، إنك بهذا التحري والاختيار إنما أديت ثلث واجبك ، وقد بقي عليك ثلثاه ، لقد طهرت الأداة وأصلحت الوسيلة ، ولكن بقي أن تطهر الباعث وتصحح النية وأن تنظم الأسلوب ، وتهذب الخطة على الوجه الذي يرضاه الله ....) ص ٣٥ من المرجع السابق .

فهذه فئة من الناس إنما تطلب المال لتطغي به على العباد ، وتنشر به في الأرض والفساد ، وهذه فئة أخرى تسعى إلى المال لتعاقر به وتقامر ، أو لتخالل وتخادن ، أو لتنفقه في ألوان المسكر والمخدر ، وهذه فئة ثالثة تطلب المال لا لتبطش بيدها ولا لتفجر بجارحتها ، ولكنها آثمة القلب أسيرة الهوى الخفي تريد أن تباهي بثروتها وتفاخر ، وأن تنافس بها وتكاثر **﴿كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها﴾** الاسراء ٣٨ .

فالأوصاف السابقة هي صفات المترفين الذين أطغاهم وجود المال بأيديهم فصار دمارا لهم بدلا من أن يكون عمارا لهم .

ويقول الشيخ : إن هؤلاء ليس لهم هدف إلا الشهوة الجامحة ،

فهم يأخذونه من حله ، ولكن ينفقونه في غير محله ويتخذونه أداة وعونا على المعصية .

ويضرب الشيخ لذلك مثالا فيقول : ألا تدخل معي إلى بيت من بيوتهم لتنظر في وجوه أهليهم وأولادهم ؟ وارحمتاه لهذه الأكباد الطاوية والأجساد العارية تتلفت طول يومها وتقضي جلّ ليلها تشوقا إلى كافلها وعائلها ، وهو عنهم في شغل بين قرناء السوء يفرق ماله في كؤوس الصهباء أو يحرقه ويذره دخانا في الهواء ، أو يدفنه في بالوعة الموائد الخضراء ....) ص ٥٥ ، المرجع السابق .

ثم يقول رحمه الله :

(وهذا الأسلوب المنحرف من أساليب الحياة هو الذي يداعب نفوس الجماهير عندنا ، وهو الذي يحرك همتهم إلى السعي ، ويغريهم بالجد في الكسب ، إنهم يغبطون السفهاء ، يتمنون أن يكون لهم مثل ثروتهم ليسرفوا كإسرافهم ، يقول كل منهم : — يا ليت لي مثل ما أوتي فلان ، إنه لذو حظ عظيم ، أما إني لو كنت مكانه لكنت أشد منه بطشا بقوتي ، وأكثر استمتاعا بثروتي ، فهم من قبل أن ينفقوا بل من قبل أن يكسبوا ما ينفقون محاسبون على هذه النية الفاجرة ، إنهم منذ الآن مأزورون غير مأجورين ، إن عليهم أوزار المسرفين العابثين ....) ص ٥٦ ، من أخلاق القرآن . د . محمد عبد الله دراز .

الجـــاه :

يعرف بأنه : ملك القلوب بطلب محل فيها ، ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال .

وكل من لا يقدر على القيام بنفسهفي جميع حاجاته ، وافتقر إلى

من يخدمه افتقر إلى الجاه لا محالة في قلب خادمه ، لأنه إن لم يكن عنده محل وقدر ، لم يقم بخدمته ، وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه .

لماذا يطلب الجاه ؟

يطلب لجلب نفع ، أو لدفع ضر ، أو لخلاص من ظلم .

فأما النفع فيغني عنه المال ، فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر . وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة .

وأما دفع الضر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل ، أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في قلوبهم ، أو محل له عند السلطان ، وقدر الحاجة فيه لا ينضبط ، لاسيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب .

والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك ، لأن هذا الطريق — طلب الجاه — من الأسباب المؤدية إلى الطغيان والترف ، فهو في أول الأمر قد يملك القدر عند الناس ، ولكن الشيطان لا يغفل عنه ، فيزين له ، ويأمره بالطغيان والتمادي بظلم العباد ، وهنا تقع الواقعة ، ويصبح أجوفا بعد أن كان مملوءا بحب الناس ، لأن هذه سنة من سنن الله أن من ملك شيئا من أعراض هذه الدنيا من أموال وأولاد ، أو جمال ، أو منصب ، فإن الشيطان يزين له الباطل في صورة الحق ، ويوهمه أن هذا الشيء إنما ملكه من تلقاء نفسه ، كما قال قارون : ﴿**إنما أوتيته على علم عندي**﴾ ، فينسى الله ، فمن ثم ينسيه الله نفسه وينبساها ، ويسلط عليه هذه الأعراض وغيرها ، فإن الانسان إذا وصل إلى هذا الحد فإنه لا شك يحتاج إلى علاج وإن لم يشعر بالمرض ، لأن المجنون لا يعلم أنه مجنون بل يدعي أنه هو

العاقل وغيره هو المصاب .

وهذا الكلام لا يصدر من فراغ — وأعني به جنون العظمة — فهو على درجات ، أو لتقل مستويات ، فأعلاها الأمير ، وأقلها الموظف المسؤول عن بضعة موظفين ، فإن منصبه سواء كان أميرا أو موظفا يخوله ويمكن من الاصابة بهذا الداء ، إلا من عصم الله .

فمن مضار الجاه أن يستخدمه فيما يسوء الخلق ، فالأمير قد يظلم المأمور بتوقيفه بحجة باهتة ، أو بالاستيلاء على ماله ، أو بمنعه من دخول البلاد .

والموظف وهو أمير على من تحته ، قد يظلمهم ، ويظلم عباد الله المسؤول عن انفاذ أعمالهم ، فمثال الأولى أن يكلفهم فوق طاقاتهم ، أو يكلف أحدهم بأعباء منزله بإحضار الحاجات ، ومن النوع الثاني وهو الظلم الواقع على المستفيدين من الخدمة أن يؤجل إنفاذ أعمالهم ويماطل في ذلك فيقول لهم : احضروا في الأسبوع القادم ، أو الشهر القادم ، إلى غير ذلك ، أو يظلمهم بالايحاء لهم أنه يريد رشوة لتسهيل عملهم ، وغيرها من السكك والطرق والسبل الملتوية .

ولا يعمل تلك الأعمال إلا المترفون المنعمون بحصول الجاه لهم .

ولكن هناك نوع من الجاه المحبوب ، وهو الجاه الصادر والمنبعث عن النفس الطاهرة فإن قلوب العباد قد تمكن فيها محبته بمحبة هذا الرجل لله ، وبتقواه إياه ، فلا يوجد مقارنة بين الجاه الأول النابع عن المادة والجاه الثاني النابع عن الروح ، لأن الأول فردي والثاني منجي ، والأول زائل بزوال صاحبه عن الحياة والثاني باق ولو توفي صاحبه .

فإذا ما يضطر الانسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور بل الزائد على الحاجة سم قاتل ، والمقتصر على الضرورة دواء نافع ، وما بينهما

درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلا فهو مضر ، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر ، والسم محظور شربه ، والدواء فرض تناوله ، وما بينهما مشتبه أمره ، فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ، ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرقة الناجية لا محالة .

ومن علم من نفسه أنه لا يستطيع أن يسيطر على مطامعه فعليه بالكف عن هذا المنصب وغيره من سائر المناصب ، والعكس بالعكس .

الجمـــال :

هذا العنصر كالعناصر السابقة في كونه سببا في الطغيان ، ومن ثمّ الترف ، فهو نعمة من نعم الله على عباده ، فإن أحسن استخدامها صارت لصاحبها خيرا وسعادة في الدارين ، وذلك بتقييدها بالشكر قولا وعملا .

وإلا صارت وبالا عليه .

ويندرج تحت مسمى الجمال الجمال في أشياء كثيرة ، كالجمال الشكلي لوجه الانسان ، والجمال الملبوس من الحلل والألبسة وسائر ما يلبس ، ومنها الجمال في المركب ، أو لنقل : المراكب لتعددها في هذا الزمن ، وكذلك المسكن وغيرها .

وإن مسمى الجمال واسع ، لا يكاد يحصر بالجمال الشكلي ، فعلى الانسان أن يعلم حقيقة واحدة وهي : إنها لو دامت لغيره ما وصلت إليه .

فهذه الحكمة تكتب بماء الذهب ، لأن هذه الحكمة إذا عقلها

من أعطى بسطة من الجمال في أي صنف من الأصناف فإنه لن يطغى ويحدث عنده الترف ، بل يكون شاكرا لله ذاكرا له ، وهذه عبارة واصفة للمال وأظنها تصلح لوصف الجمال .

يقول الشيخ : (اعلم أن المال مثل حية ، فيها سم وترياقه ، ففوائده ترياقه وغوائله سمومه . فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره)[1] .

فأنا أعتبرها قاعدة كلية ، فكل شيء له منافع وسيئات ، وأرى عدم حصرها في المال كما صرح الشيخ رحمه الله .

ومن صور الجمال الشكلي الذي لم يغتر به صاحبه ما كان لرسول الله يوسف بن يعقوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التحيات . فإن يوسف قد أعطاه الله بسطة من الجمال ، فاقت كل تصور البشر ، لدرجة أن زوجة الوزير الأول في مصر في عهده فتنت بجماله ولم تستطع أن تقاوم ذلك الجمال ، فاتبعت لاستثارته جميع صنوف الاغراء لدرجة أنها في آخر مرة غلقت الأبواب ، وطلبت منه الفاحشة صراحة ، وجها لوجه ، ولكن الله وقاه بتقواه من السوء ، يقول الله تعالى :

﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رءا برهان ربه ، كذلك لنصرف عن السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوء إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ سورة يوسف ، الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .

فلا شك أن هذا الجمال لا يوصف ، وإلا لما وقعت فيه زوجة

---

(١) الغزالي ، احياء علوم الدين جـ ٣ /٢٣٥ ، دار المعرفة .

الوزير ، وفي موضع آخر تدعوه إلى الفاحشة ، فهي لم تيأس من ممانعته وانصرافه عنها ، فيحكي ذلك الله تعالى فيقول : ﴿**قالت فذلك الذي لمتنّني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين**﴾ يوسف ٣٢ .

وأعتقد أن هذا الأمر لا يحتاج إلى كثير شرح ، فلينظر الانسان إلى قمة التعلق وعدم الحياء ، وتطلب ذلك أمام النسوة ، فلا شك أنه بلغ شغاف قلبها ، وستر عنها أبواب التعقل والرزانة .

وقبل هذه الآية يصرح القرآن بوصف الرسول يوسف عليه السلام بالجمال على لسان النسوة اللاتي دعين إلى امرأة العزيز ، فيقول جلّ وعلا : ﴿**فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وأتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم**﴾ الآية ٣١ من سورة يوسف .

ومع ذلك لم يغتر يوسف بهذا الجمال ولم يطغ ، بل اتقى الله وخشيه . ولم يقع فيما نهاه ، فجعل الجنة مصيره ومنتهاه ، ونلخص الجزاء القريب له في الدنيا قبل الجنة ونعيمها ، عندما مكن الله له ، وجعل خزائن مصر تحت تصرفه ، وحلّ محل الوزير الأول ، فيقول الله سبحانه وتعالى واصفا حاله . يقول تعالى :

﴿**وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلّمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ يوسف ، الآيات ٥٤ ــ ٥٧ .

أما الجمال المعتمد على الزينة في الملبس والمركب فهناك مثاله

بارز للعيان ، وهو ما وقع لقارون ، فهذا الرجل لم يشكر الله ، وبدل نعمة الله كفرا ، وصار مآله البوار والخسار في هذه الدار ، وبعد ذلك عند لقائه بالعلي الجبار ، فلننظر إلى هذا ومصيره :

وقد أعطاه الله من الخير المال الكثير والرزق العميم ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، كما صرح الله بذلك في جملة من آيات الكتاب العزيز . قال تعالى :

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما انّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقّاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين﴾
القصص الآيات ٧٦ ــ ٨٣ .

فهذه الآيات لا تحتاج إلى كثير شرح ، فقد فصلت حاله ومآله الملخصفي ختام هذه الآيات ، وختام الآيات الواردة في يوسف فقد

ركزت على أن سبب النجاة هي التقوى ، فيقول في ختام الآيات الواردة في وصف يوسف :

﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ يوسف ، الآية ٥٧ .

وفي ختام الآيات الواردة في قارون :

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين﴾ .

فنخلص من ذلك إلى أن الجمال جمالان . جمال الصورة كما هو حال يوسف والجمال الثاني ما سوى ذلك من زينة ومتاع ومسكن ومركب .

وهناك نقطة أخرى وهي :

إن الجمال مع التلبس بلباس التقوى خير في التدين ، وأن الجمال مع البعد عن الله يؤدي إلى الترف ، ويكون دمارا في الدارين .

الفصل الثاني

مظاهر الترف

الملبـــس :

وكما ذكرنا في المظهر السابق فلابد من الاعتدال في الملبس .

فيكون له ثوبان وسروالان لكل فصل من الفصول ، بحيث يعقبهما عند الاتساخ وما جاوز ذلك فهو مظهر من مظاهر الترف وعلامة من علاماته .

وليس القصد من الملبس هو التفاخر كما في عصرنا الحاضر ، والمباهاة بين الناس أيهم أحسن ملبساً ، بل المقصود من اللباس هو أن يكون أولا ساترا لما تحته من عورة وأشياء لا يراد إبداؤها أمام الناس .

ثانيا : أن يكون هذا الملبس واقيا من البرد في الشتاء ومانعا للحر في الصيف .

وإن كنا قد أمرنا بالتزين والتجمل فليس معنى ذلك أن نبالغ بالتزين إلى حد الطغيان ونجاوز الحد ، وتقديمها على الأساسيات .

ولنضرب لذلك مثلا .. فبعض الناس يملك من أثواب الشتاء عشرة مثلا ، وأثواب الصيف سبعة ، فبالله ماذا يعمل بهذه الأثواب العشرة في الشتاء والسبعة في الصيف ؟ إن هي إلا مظاهر فارغة .

هذا السابق قد يكون من قماش حلال ، لكننا نجد أناسا بسبب أنعام الله عليهم أصبح همهم هو مخالفة المنعم وانتهاك ما حرم عليهم ، وذلك بلبس الحرير وقد نهينا عن لبسه .

والله سبحانه وتعالى عندما أمر بالزينة في الملبس قصد من ذلك أن تضمن لصاحبها مظهرا مقبولا ، وأن لا يكون في ذلك الملبس أى نوع من الخيلاء ، وأقول الخيلاء لأن من سلك مسلك المترفين فلا شك أنه أصيب بالمخيلة ، وهو مرض عضال ، يسقط صاحبه من حيث رفعه ، فهو في نفسه رفيع وفي نظر الله والناس وضيع وإن

اغتر به بعض المغفلين .

ولنتحول قليلا في مسالك السابقين لنهتدي بهداهم .

فهذا أبو ذر رضي الله تعالى عنه يروي هذا الحديث :[1] (ما من عبد لبس ثوب إلا أعرض الله عنهن حتى ينزعه وإن كان عنده حبيبا) رواه ابن ماجه .

ثم نعود إلى السلف فماذا يقولون ؟ ..

فهذا أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ يقول : (أوصى رسول الله ــ ﷺ ــ عائشة رضي الله عنها خاصة ، وقال : **إن أردت اللحوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعي ثوبا حتى ترقعيه**) رواه الترمذي ، وقال غريب ، والحاكم وصححه[2] .

وعدّ على قميص عمر اثنتا عشرة رقعة ، بعضها من أدم .

واشترى على رضي الله عنه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه ــ وهو في الخلافة ــ وقطع كمه من الرسغين وقال : الحمد لله الذي كساني هذا من ريشه .

وقال الثوري وغيره : ألبس من الثياب ما لا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال .

وقال بعضهم : قوّمت ثوبي سفيان ونعليه بدراهم وأربعة دوانق .

وقال ابن شبرمة : خير ثيابي ما خدمني ، وشرها ما خدمته .

وقال بعض السلف : ألبس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ولا تلبس منها ما يشهرك فينظر إليك .

وقال أبو سليمان الداراني : الثياب ثلاثة : ثوب الله وهو ما يستر

---

(١) احياء علوم الدين ٤ /٢٢٦ ، تحقيق د . بدوي .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٨ .

العورة . وثوب للنفس وهو ما يطلب لينه ، وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه .

وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهما ، وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين ، قميص ومأزر تحته ، وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه .

وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في بزته ، فجعل يتكلم في الزهد فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضرط به ، فغضب ابن عامر فشكاه إلى عمر ، فقال : أنت صنعت بنفسك ، تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة[٣] .

وقال علي ــ رضي الله عنه ــ إن الله أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدي بهم الغني ولا يزرى بالفقير فقهر) .

ولما عوتب في حوشته لباسه قال : هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدى به المسلم .

وهذا رسول الله ــ ﷺ ــ مرة أخرى يقول : **(إن لله عبادا ليسوا بالمتنعمين)** .

ورؤى فضالة بن عبيد ــ وهو والي مصر ــ أشعث حافيا ، فقيل له : أنت الأمير وتفعل هذا ، فقال : (نهانا رسول الله ﷺ عن الارفاه وأمرنا أن نحتفي أحيانا) رواه أبو داود بإسناد جيد .

وقال علي لعمر رضي الله عنه : إن أردت أن تلحق بصاحيك ، فارفع القميص ، ونكس الأزرار ، واخصف النعل ، وكل دون الشبع .

وقال عمر : اخشوشنوا ، وإياكم وزي العجم كسرى وقيصر .

---

(٣) احياء علوم الدين ٤ /٢٢٩ .

وقال علي أيضا : من تزين بزي قوم فهو منهم .

وقد ورد عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : **(ازرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ، ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ، وما أسفل من ذلك ففي النار ، ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ ازاره بطرا)** رواه مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ، ورواه أيضا النسائي من حديث أبي هريرة ، قال محمد بن يحي الذهبي : كلا الحديثين محفوظ .

وقال الأوزاعي : لباس الصوف في السفر سنة ، وفي الحضر بدعة .

وقالوا أبو سليمانة الدارمي : لما اتخذ الله ابراهيم خليلا أوحى إليه أن وار عورتك من الأرض ، وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل ، فإنه كان يتخذ سروالين ، فإذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة .

وقيل لسليمان الفارسي رضي الله عنه : (مالك تلبس الجيد من الثياب ، فقال : وما العبد الثوب الحسن ، فإذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبدا) .

ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أنه كان به جبة شعر وكساء يلبسهما من الليل إذا قام يصلي .

وقال الحسن لفرقد السبخي : تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك ، بلغني أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا .

وقال يحي بن معين(٤) : رأيت أبا معاوية الأسود ، وهو يلتقط الخرق من المزابل ، ويغسلها ، ويلفقها ويلبسها ، فقلت : إن تكسي

---

(٤) احياء علوم الدين ٤ /٢٣١ .

خيرا من هذا فقال : ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة . فجعل يحي بن معين يحدث بها ويبكي .

فهذه أحوال الصالحين الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن ثم كسبت تجارتهم ، ونفست بضاعتهم ، ألا إن سلعة الله غالية ، الا ان سلعة الله الجنة .

فعلى المسلم أن يأخذ من هذه الدنيا مايبلغه إلى الحياة الباقية والنعيم المقيم ولا يهتم بالقشور ، ويبتعد عن لبس الأمور ، وإذا فكر الانسان وتأمل جد تأمل وجد أن هذه التفاهات لا ينبغي أن يشغل بها نفسه لأن من أشغل نفسه بهذه الكليات أشغلته نفسه ، ومن صوّم نفسه وفطمها انفطمت ، ولم تدفعه إلى الشره والتطلع إلى ما في أيدي الناس ، لأن كل من على هذه الأرض زائل ، كما ورد في سورة الرحمان ، ﴿**كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام**﴾(٥) .

وليس معنى هذا أن نترك زينة الدنيا ، ولكن كما قلنا في أول هذا المبحث ان الأساس في هذا النوع من التنعم وغيره من سائر وجوه التنعم ان ينضبط بحد القصد والاعتدال .

المطعـــم :

(لابد للانسان من قوت حلال يقيم صلبه ، ولكن له طول وعرض ، فلابد من قبض طوله وعرضه) وإلا أصبح هذا الطعام مظهرا من مظاهر الترف وعلامة من علاماته .

وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل ، وأوسطه رطل ، وعلاه مد

---

(٥) سورة الرحمن الآية ٢٧ .

واحد ، وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين من الكفارة ، وما وراء ذلك فهو اتساع البطن والاشتغال به ، فيكون ترفا .

فإن جعل الوجبات الثلاث في اليوم يعتبر من مظاهر الترف ، وليس هذا الكلام من باب المبالغات بل هو الحق . فالقصد من الأكل عند الانسان أن يكون بلغة إلى الآخرة ، ومعينا على عبادة الله ، وتحقيق الموازنة القائلة : لا ضرر ولا ضرار ، فالقصد هو الاعتدال دون التخمة في الأكل التي أثبت العلم الحديث إنها تورث أمراضا لا حصر لها .

وأما الحيوان فهمه إشباع الغرائز ، ومنها غريزة حب الأكل .

ومن سؤالي لبعض الناس نتج هذا الجواب : يقول البعض منهم إنني آكل ليس لأجل الحاجة للأكل ، بل لأجل التعود ، فهو مثلا تعود في الصباح على الافطار ، وفي الظهر على الغداء ، وتعود في المساء على العشاء ، فأصبحت عادة وسجية له وديدنا له .

وإذا أصبح الأمر إلى هذا الحد فيخشى عليه انقلاب الموازين ، وصدق عليه وصف الله له بأنه حيوان، بل أظل من الحيوان .

ولا نريد أن نتحدث عن ما يصدع الرأس ، ويؤلم القلب في واقعنا الحاضر من حصول الاسراف والتبذير ، وهو علامة من علامات الترف فإن ما يحدث في حفلات الاستقبال وحفلات الأعراس من إضاعة النعم والكفر بها لأمر عظيم لا يرضى به الله ورسوله ، بل لا يرضى به الانسان العاقل .

فنجد حفلا أقيم للاستقبال يكفي لمئة شخص والمدعوون عشرة أشخاص وربما أقل .

وكذلك حفلات الزفاف ، فنجد أنها تتصف بتلك الصفة .

وقد نهينا في هذا النوع أو المظهر من مظاهر التنعم أن نبلغ بالطعام حد الشبع ، فقد ورد : ثلث لطعامك ، وثلث لشرابك ، وثلث

لنفسك . بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه . كما ورد .

فهذه القاعدة الغذائية لو سار عليها المؤمنون فإنهم بلا شك ممنوعون — بإذن الله — من عشرات الأمراض ، منها : التخمة ، وأضرار الهضم .

وتحضرني هنا قصة لأحد المغفلين ، فقد قيل إنه ذهب إلى دولة غربية — ألمانيا الغربية — وعند دخوله لاجراء عملية جراحية قرأ العبارة السابقة ، فلم يعلم أن القائل لها رسول الله — ﷺ — فقال له الجراح : إن هذه العبارة لنبي العرب — هو مسيحي — فقال له الجراح : هل هو نبيكم ؟ قال : نعم . فما أجهل المسلمين بدينهم .

وإن قلت فلابد أن أتلذذ بالأكل عند الجوع ، فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ ، فإن شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ، ومن يقضي حاجته قد يستريح بذلك ، ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ، ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا إليه .

فالانسان قد يستريح في قيام الليل بنسيم الأسحار وصوت الأطيار ، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره .

وبعيدا عن الأطالة فقد ورد أثر يشير إلى المعدة وهو : (**المعدة بيت الداء ، والحمية أصل الدواء**)[٦] . أو كما ورد .

فكما قلنا في السابق نجد أن معظم أمراض الانسان ناتجة عن سبب ما يدخله الانسان إلى جوفه ، وقد نهى الحكماء عن إدخال الطعام على الطعام ، وقالوا إن ذلك هو أساس المرض .

(٦) وقد قال نصراني عندما سمع هذا الأثر : (ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً قالها عند الرشيد في مجلسه . الآية ٣٣ من الأعراف . تفسير البيضاوي ٢ــ٢٣٧ .

ولا يقوم بالأعمال السابقة إلا الموصوفون بالترف وكثرة الخيرات ، لأن النعم هي الموطئة للترف ، وقد يرى بعض المغفلين إن امتنان الله وإعطاءه النعم بكثرة دلالة محبة له ، ولم يعلم إن النعم بجميع أنواعها ما هي إلا وديعة عنده ، فينظر الله هل يحفظ هذه الوديعة أم يضيعها ، وإن هذه النعمة ابتلاء له على الشكر ، كما أن الفقر والعدم ابتلاء على الصبر .

فالاسلام يتكون من أصلين عظيمين هما :

١ ــ ركن الشكر على العطاء .

٢ ــ ركن الصبر على القضاء .

والانسان إذا علم ذلك فلا شك أنه لا محالة من الناجين ، لأنه عرف سر النعم ولماذا تعطي له أو تمنع عنه ، وابتعد عن طريق البهائم ، واستعمل عقله فيما هو موضوع له في الحالين .

فهذا نبينا محمد ــ ﷺ ــ فيما ترويه عنه عائشة ــ رضي الله عنها ــ واصفة بين النبوة فتقول : (كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ــ ﷺ ــ مصباح ولا نار ، قيل لها : فكيف كنتم تعيشون قالت : بالأسودين التمر والماء) رواه ابن ماجه .

ولأحمد : لكان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار) .

وفي رواية : (ثلاثة أهلة)[٧] .

وقال الفضيل : (ما شبع رسول الله ــ ﷺ ــ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر)[٨] .

---

(٧) احياء علوم الدين ٢ /٢٢٥ .

(٨) المرجع السابق ص ٢٢٦ .

وكان المسيح ﷺ يقول : يابني اسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكره[٩] .

وليس القصد من ذكر الآثار السابقة النهي عن التلذذ بالطعام وبما أحله الله . ولكن المراد من ذلك أن نسلك سبيل الاعتدال ، فلا نفرط في النعم ونكون من المترفين ، ولا نكون مفرطين كما يفعل الزهاد ، بل الاعتدال هو المطلوب .

المسكـــن :

وهذا المظهر قد يوصف صاحبه بأنه مترف ـــ كما سبق ـــ إذا جاوز به صاحبه حد الاعتدال .

فالغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى .

وقد قيل أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله ـــ ﷺ ـــ التدريز والتشييد ، يعني بالتدريز كف دروز الثياب ، فإنها كانت تشل شلا ، والتشييد هو البنيان بالجص الآخر ، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد .

وفي الصحيحين من حديث أنس في قضية بناء مسجد المدينة ، (فصفوا النخيل قبلة المسجد ، وجعلوا عضاديته الحجارة) .

ولهما من حديث أبي سعيد : كان المسجد على عريش فركف المسجد .

وقال الحسن : مات رسول الله ـــ ﷺ ـــ ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة) ابن حبان في الثقات ، وأبو نعيم في

---

(٩) المرجع السابق ص ٢٢٧ .

الحلية ، هكذا مرسلا[١] .

وفي الخبر : (كل نفقة للعبد يؤجر عليها إلا ما أنفقه في الماء والطين) ابن ماجة من حديث خباب بن الارت ، بإسناد جيد ، بلفظ : إلا في التراب ، أو قال : في البناء .

وفي الأثر أيضا (إذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله في الماء والطين) أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد .

ونظر عمر ـــ رضي الله عنه ـــ في طريق الشام إلى صرح قد بني بجص وأجر ، فبكى وقال : ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون ، يعني قول فرعون : (فأوقد لي يا هامان على الطين) يعني بالأجر .

ويقال إن فرعون أول من بني له بالجص والأجر ، وأول من عمله هامان ، ثم تبعهما الجبابرة ، وهذا هو الزخرف .

ورأى أحد السلف جامعا في بعض الأمصار فقال : أدركت هذا المسجد مبنيا من رهص ، ثم رأيته الآن مبنيا باللبن ، فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهص ، وأصحاب الرهص خير من اللبن .

وكان في السلف من يبني داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في أحكام البنيان ، وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه فإذا رجع أعاده .

وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود ، وهي عادة العرب إلا في اليمن في زمن الغزالي ، وكان ارتفاع السقف قامة وبسطة .

قال الحسن : كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ـــ ﷺ ـــ ضربت بيدي السقف[٢] .

---

(١) احياء علوم الدين ٤ /٢٣٠ ، ٢٣١ ، تحقيق بدوي طبانه (٢) احياء علوم الدين ٢

وقال عمرو بن دينار : إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك إلى أين يا أفسق الفاسقين .

وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد ، وقال : لولا نظر الناس لما شيدوا ، فالنظر إليه معين عليه .

وقال الفضيل : إني لا أعجب ممن بنى وترك ، ولكني أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : يأتي قوم يرفعون الطين ، ويضيعون الدين ، ويستعملون البراذين ، يصلون إلى قبلتكم ، ويموتون على غير دينكم .

والصفات السابقة وغيرها منطبقة أيما انطباق على المترفين فى عصرنا ، بل أبلغ من السابق ، فتجد بعض المترفين يملك العشرات من الفلل والعمائر والدور الشعبية والمعارض . وليس هذا فقط ، بل نجد منهم من يملك بعض الغابات ، وبعض المدن بأكملها ، ويملك الأساطيل البحرية واليخوت ، ووسائل التخدير الدنيوية ، ولا يمكن احصاؤهم لكثرتهم .

ومع ذلك لا يشكرون الله ، بل يستعينون بها على ما حرم الله ، فأحدهم يعطي لغانية ، وآخر يعطي يختا لأخرى . وثالث يعطي قصراً لراقصة .

فالحمد لله رب العالمين ، فلا ينبغي أن يحزن الانسان لاسيما المؤمن على من أعطي تلك الأعطيات ، بل يحمد الله لأنه قد كفى حسابها ووقي من الوقوع في نتائجها .

فهؤلاء المترفون أيما تغفيل ، وقد أصيبوا بداء العظمة والتفاخر والتباهي ، وقبل ذلك أصيبوا بداء الكفر بالنعمة لأنهم اعتقدوا أن هذه الممالك لهم بكسب أيديهم وبجدهم واجتهادهم ، فنسوا الله فنسيهم

وسلط الله عليهم أعدادا من الجراثيم البشرية الطالبة لنوالهم الحريصة على عطائهم ، فسليوبهم ما أعطوا بأخس الوسائل فلله الحمد من قبل ومن بعد .

ونعرج مرة أخرى إلى واقعنا ، فنجد — وللأسف — وأقولها متألما ، فنجد المسلمين قد اهتموا بالزخارف والنقوش وتحسين البنيان ، ويقولون هذا بناء إسلامي ، وهذا زخرف إسلامي ، وهذا نقش إسلامي إلى غير ذلك من الترهات ، وعميت بصائرهم ، وأصيبوا بداء المغالطة وبداء النسيان ، فيخشى عليهم من المصير المدمر ، وليس ذلك ببعيد ، فإن الأمة — وهذا شاهد ومعلوم من تاريخنا — إذا بلغت أوج التنعم صار ذلك إيذانا بانهيارها كما حدث للدولة العباسية ، والدولة الأموية في الأندلس .

وكلامنا هذا لا يعني أن لا نبني بيوتنا بوسائل البناء الحديثة ، بل نستفيد مما هو موجود في حدود الاعتدال ، مع البعد عن المفاخرة والتظاهر ، ومع تذكر أننا راحلون إلى دار آخرة هي خير من هذه ، فلا نتمادى في تشييد المباني ، بل القصد هو الخير .

أثاث المسكن :

ويدخل في هذا الترف ، ويعتبر مظهرا آخر من مظاهر الترف السالفة .

والنجاة من ذلك هو كما سبق الاعتدال فيه .

فالمطلوب التوسط وترك الافراط والتفريط .

فنجد على جانب الافراط أن بعض الناس — المترفين — يغيرون أثاث مسكنهم كل عام مرة ، والبعض الآخر لا ينتظر تمام العام ، بل يغيره كل ستة أشهر .

والأنكى من ذلك الأمر أن يستدين لأجل هذا الأثاث ، فالهدف في نظره هو المظهر الاجتماعي . والعادات السيئة وفراغة عقول الناس وضحالتها لأن الناس أصبحوا يقيسون الشخص بما لديه من مظاهر فارغ وقشور زائلة ، فتبدلت الموازين وما ذلك إلا لطغيان المادة عند بعض الناس ، فما ذنب الفقير ونفسه تنكسر عند رؤيته لتلك المظاهر ، أفلا يخشى هذا المغفل من أن يصاب بالعين ، أو يتلفه لاو يتلف ما عنده انتقاما من الله لأنه لم يشكر نعمة الله بالاعتدال في ذلك .

والعكس من ذلك الافراط بأن يكون أثاثه سيئا متسخا ، فهذا أيضا غير مقبول .

وقد قالت عائشة ــ رضي الله عنها ــ مرشدة إلى حال رسول الله ــ ﷺ ــ : (كان ضجاع رسول الله ــ ﷺ ــ الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف) أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح ، وابن ماجة[1] .

وقال الفضيل : ما كان فراش رسول الله ــ ﷺ ــ إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف) . الترمذي في الشمائل ، عن حفصة .

وروي إن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ دخل على رسول الله ــ ﷺ ــ وهو نائم على سرير مرمول بشريط ، فجلس فرأى أثر الشريط على جنبه عليه السلام ، فدمعت عينا عمر ، فقال النبي ــ ﷺ ــ : **ما الذي أبكاك يا بن الخطاب ؟** قال : ذكرت كسرى وقيصر ، وما هما فيه من الملك ، وذكرتك وأنت حبيب الله

---

(١) احياء علوم الدين ٤ /٢٣٢ .

وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط ، فقال ﷺ : **أما ترضى يا عمر أن تكون لهما في الدنيا ولنا في الآخرة ؟** قال : بلى يا رسول الله ، قال : **فذلك كذلك**) متفق عليه .

ومن هديه ﷺ : أنه رأى على باب عائشة سترا فهتكه ، وقال : **كلما رأيته ذكرت الدنيا ، أرسلي به إلى آل فلان**) الترمذي وحسنه والنسائي في السنن الكبرى عن عاشة .

وقال الحسن : أدركت سبعين من الأخيار ، ما لأحدهم إلا ثوبه ، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوا قط ، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه[٢] .

فهذا حال العارفين بالله ، المقدرين للدنيا خير تقدير ، فليكن لنا فيهم أسوة حسنة ، ونتجنب مسلك المترفين .

وقد ثبت في العلم الحديث أن النوم على الأرض مباشرة أكثر فائدة لجسم الانسان من النوم على سرر الاسفنج وغيرها من أنواع المفارش .

فالأثاث في وقتنا أصبح متشعبا ، فهذه غرفة نوم ، وهذه غرة استقبال ، وهذه غرفة لتناول المشروبات .. إلى غير ذلك من التقسيمات ..

فأصبح البيت يتكون من عدة بيوت ، والمسكن من عدة مساكن ، ووقع كثير من المسلمين في الترف من حيث يدري أو لا يدري لغفلته وبعده عن هدي الاسلام .

وبالاضافة إلى ذلك فنجد هناك غرف كما يقولون شعبية ، وغرف

---

(٢) احياء علوم الدين ٤ /٢٣٣ .

على الطريقة الغربية أو الشرقية ، ويتفاخرون في أنواع الستائر وألوان الغرف .

فليس القصد من هذا الكلام التقشف وترك الطيبات ، بل كما قلنا الاعتدال ، وذلك بتقوى الله ، والبعد عن الشيطان واغوائه ، ومراعاة الله في ذلك .

المنكـح :

فكما حصل الترف في المظاهر السابقة ، فإنه يحصل كذلك في هذه العنصر

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم ، والمرأة قد تكون شاغلا من الله ، وكشف الحق فيه أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحيان . والنكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب .

فترك النكاح احترازا عن ميل القلب إليهم والانس بهم بحيث يشتغل عن ذكر الله ، فترك ذلك من الزهد ، وعمله من الترف .

فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ، ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والموافقة فليس هذا من الزهد ، فإن الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير أمة محمد من القربات واللذة التي تلحق الانسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره إذا لم تكن هي المقصد والمطلب ، وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب ، وليس ذلك من الزهد في شيء ، لأن في ترك ذلك فوات بدنه ، فكذلك ترك النكاح انقطاع نسله ، فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته من غير خوف آفة أخرى ، وهذا ما عناه سهل لا محالة .

ولأجله نكح رسول الله ﷺ .

وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله ــ ﷺ ــ في أنه لا يشغله كثرة النسوة ، ولا اشتغال القلب باصلاحهن والانفاق عليهن فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان ، فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن ، أو جمال المرأة ، فلينكح واحدة غير جميلة ، وليراع قلبه في ذلك[1] .

فهذا هو معيار الترف في المنكح .. فإذا حصل به الاشتغال عن ذكر الله أو التأمل في كونه أصبح هذا من مظاهر الترف ، والعكس بالعكس .

فهذا علي رضي الله عنه كان له أربع نسوة ، وبضع عشرة سرية .

وقبله كان للنبي ــ ﷺ ــ تسع نسوة .

ومن الترف في هذا العنصر أن يتخذ بنات الناس دمى تحت تصرفه ، فيتزوج هذه وينجب منها خمسة من الأبناء ويطلقها ، ثم يتزوج أخرى وينجب منها ثلاثة من الأبناء ثم يطلقها ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، إلى آخر ضحاياه ..

والسبب في ذلك ، أولا : جهله بالشريعة ، ثم ما ملكه الله من ماله ، فلم يراع حق الله فيه .

والشرع الحنيف لا يعتبر النكاح بحد ذاته مظهرا من مظاهر الترف ، بل هو واجب ديني قد حث عليه الرسول ﷺ : (**تناكحوا تكاثروا فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**) أو كما ورد .

وقد ورد : (**تزوجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم يوم**

---

(١) احياء علوم الدين ٤ /٢٣٣ .

القيامة) أو كما ورد .

فتحول النكاح إلى كونه مظهرا من مظاهر الترف ، يتم بما سبق ، وذلك بكونه شاغلا عن الله ، وكذلك بالتلاعب ببنات المسلمين تارة يتزوج وتارة يطلق .

وليس المقصود من ذلك ذم التعدد ، بل هو الأصل وغيره فرع ، ولكن بالعدل .

ويحضرني حادثة رواها لي الشيخ محمد الراوي حفظه الله يقول : إن الناس في نيجيريا أكثرهم بل غالبهم عنده أربع من النسوة ، وذلك ان المرأة هي التي تطلب من الزوج أن يتزوج عليها .

فهذا الكلام هو جملة القول ، وهو الاعتدال ولا شيء غيره ، فالانسان يضع هذا الأمر وغيره من الأمور والمظاهر في ميزان الاعتدال ، فإذا مال فعليه بالبعد والاجتناب ، وإلا فعليه بالمسير في هذا المسلك وغيره .

الفصل الثالث

آثار الترف

الغفلــــة :

بتتبعنا للأمور نجد أن هذه نتيجة من نتائج الترف .

فالانسان المترف نجده غافلا عن الله وعن توجيهاته وأوامره ، فينتج من ذلك اجتراح السيئات والتمادي في الذنوب مما ينتج عن ذلك ستارا مانعا من الصلة بالله ، فينتج من السابق كراهية لقاء الله سبحانه وتعالى ، لأنه لم يقدم شيئا يفرح به عند مقدمه إلى الله سبحانه وتعالى ، وهذه قمة الغفلة بالبعد عن الله ، وينتج من ذلك التمادي بحب الدنيا ، والفرح بها والاستغناء بها عن الآخرة ، وفي ذلك تقديم الفرع على الأصل ، أو لنقل تقديم الوسيلة على الغاية .

وهذا العمل من انتكاسات الفطرة ودلالة فسادها ، ولا يكتفون بهذا المسلك المشين الذي يرديهم في الدارين ، بل ويشعرون بانعدام هدفهم من الحياة ، وينسون الله ، فينتج من ذلك نسيان الله لهم ، وبهذا تصبح الأنعام خيرا منهم .

والسبب في ذلك أن الله سبحانه وتعالى أعطى للانسان عقلا وشهوة ، فغلب جانب الشهوة عندهم على جانب العقل .

أما الحيوانات فإن الله سبحانه وتعالى قد سلب منها العقل وأعطاها الشهوة تتصرف بمقتضى هذه الشهوة ، فلا تثريب عليها ولا حساب ، بعكس بني البشر فهم محاسبون بامتنان الله عليهم بهذا العقل ، فكأنهم لم يعطوا عقلا بتصرفهم هذا وبعدهم عن سلوك مسلك العقلاء .

قال تعالى : **﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾** .

وعن زيد بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ــ ﷺ ــ قال :

(من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره ، وفرق عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له . ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له أمره ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة)(١) . رواه ابن ماجة بسند جيد .

وهناك فئة من المؤمنين يصابون بالغفلة ، ولكنهم يرجعون ولا يتمادون ، وهم المذكورون في الآية التالية : **﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾** .

فهؤلاء عودتهم قريبة ، وقد وصف الله سبحانه حال مس الشيطان لهم بالعمى ، وبعد زوال هذا الستار يعودون إلى الابصار ، فهذا حال المؤمنين .

والمؤمنون ليسوا بمعصومين من تلك الغفلة بين الفينة والأخرى ، ولكنهم لا يتمادون لأن هذا المس طارىء ، وغير متأصل فيهم ، وقد ورد **(لأعلمن أقواما يأتون يوم القيامة بحسنات كأمثال جبال تهامة بيضاء يجعلها الله هباء منثورا ، إلا إنما هم إخوانكم ومن جلدتكم ، ويأخذون من الليل كما تأخذون ، ولكن إذا خلوا إلى محارم الله انتهكوها)**(٢)

وهؤلاء السالفة أوصافهم هم الذين قالوا : ساعة لربك وساعة لنفسك .

فهم في ظاهر أمرهم مسلمون أتقياء ، ولكن إذا لم يطلع عليهم

---

(١) احياء علوم الدين ٤ /٢١٤ .

(٢) رواه ابن ماجة في كتاب الزهد ، باب ٣٩ ، المعجم المفهرس ١ /٢٤٣ .

إلا الله ، لم يستحوا من الله ، وهذه هي قمة التهلكة ، فهو يصلي ويصوم أمام المسلمين ، ولكن إذا خلا في داره ، أو سافر انتهك ما حرم الله ، فبالغفلته وبعد عقله عن الله .

إنه بلا شك مجنون مخدوع ، وما أكثرهم في هذه الأمة وأغلبهم من المترفين الذين منّ الله عليهم بالمال .

وإن لم يكن من المترفين فلا شك أن له أصحاب يدعونه إلى المحرمات .

ثم بعد ذلك إن كان قد امتنع يستسيغها في المرات التالية ، فيقول مثلا المغفل لصاحبه : إن كان المال غير متوفر فهذا المال ، دونك سافر معنا أو تناول ما حرم الله من مسكرات ومخدرات .

قال تعالى : ﴿**وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾[٣] .

ضعف الأمم والشعوب :

لاشك أن الأمة التي ابتليت وأصيبت بهذا الداء لا تقدر على مواجهة أعدائها بل تكون لقمة سائغة لكل من أراد بها سوءا مهما ضعف العدو .

وليس هذا الكلام من عندي بل من واقع المسلمين اليوم ، فلننظر إلى حالهم ، فهم في أسوأ حال ، فأموالهم تسلب ، وأعراضهم تنتهك ، وأراضيهم تستباح ، وإلا فما تبرير ما تقوم به إسرائيل ، في كل يوم تغتصب مئات الدونمات والهكتارات من الأراضي ومثل ذلك استيلاؤها على مدينة القدس وسائر الأراضي الاسلامية ، ولا يوجد من

---

(٣) سورة الأنعام ١٠٣ .

المسلمين إلا الشجب والاستنكار ، ولا غير ذلك ، لأنهم رضوا بالحياة الدنيا واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فحق عليهم قول الله ، ووقعت عليهم سننه ، وألجموا بالهوان والضعف والانكسار .

ومن أمثلة ذلك ــ تسلط الأعداء على المسلمين ــ ما وقع -لأفغانستان .

فقد يقول قائل : إن الشعوب فيها خير . هذا صحيح ، ولكن أين القيادة الداعية إلى ترك الترف والاتجاه إلى الجهاد ، إن الجهاد لما أغلق بابه أصيب المسلمون بالهوان ، فالجهاد والترف لا يجتمعان .

فإن بعض المسلمين في هذا العصر أصبحوا مشغولين ببناء القصور وزخرفة الدور وتفاخروا بالقشور وابتعدوا عن معالي الأمور ، فأنى لهم النصر على أنفسهم ومن ثم علي العدو الغرور .

ولذلك لا ننسى (وضع الصليبيون المستعمرون المخططات ، ومنها ما نحن في صدده الترف ، إذ أغرقوا من اصطفوا بالترف بعد أن سلموهم المقاليد ، ووضعوا نصب أعينهم أن يقيدوا مما يأتي :

١ ــ اغراق هؤلاء بالمفاسد ، كي تعمى أبصارهم عن كل شيء ، ولو نظرنا إلى الترف الموجود عندنا لما وجدنا له في العالم مثيلا ، فلا يوجد في أكثر بلاد الدنيا غنى وفسادا ، ما يوجد عندنا وما يعمر بيوتنا وقصورنا من جموع الخدم والعمال والاتباع ، وما ينفق فيها من الأطعمة ، ويبذل من العطايا والهبات .

٢ ــ اغراق أكبر عدد من الشعب بهذه المفاسد عن طريق التقليد ، إذ يعمل الناس على تقليد كبرائهم وأصحاب النفوذ فيهم .

٣ ــ نعت ذلك كله بالاسلام ، إذ أن هذه العناصر تنتمي إلى الاسلام إن لم تصرح بالعمل له ، والواقع أن هناك براءة من كل طرف للآخر .

٤ ــ ويجب أن لا ننسى المظالم التي ترتكب خلف هذا كله ، ووصم الاسلام بذلك أيضا ، ونشر الدعايات في بلاد الأعداء .

٥ ــ تحقيق أهداف الأعداء من يهود وصليبيين من السيطرة والدعاية ضد الاسلام ، وإيجاد الاتباع ، وأخذ الخبرات ، وإبقاء أصحاب النفوذ في غفلة يعمهون واستمرار هذا الوضع[1] .

فلو تنبه المسلمون لما يحاك لهم لما تحققت لهم تلك المخططات ، وباءت بالفشل ولكن المسلمين أترفوا فانتصر عليهم الأعداء فاللهم ردهم ردا جميلا .

انتشار الدياثة :

فالمترفون أكثر الناس استغراقا في المتاع ، وأقربهم إلى الانحراف، بل في طليعة المنحرفين ، وعدم التفكير بالمصير ، لأن كثرة المال تدعوه إلى السيادة والخلود إلى المتعة والراحة وتيسر عمل الفسق ، فترتع فيه النفس ، وتستهتر بالقيم فلا تبالي فيها ، وتتعاظم بما لها ، كما تستهتر بأعراض الآخرين وتحاول أن تعوض لهم عنها بالمال إذ يصبح المال كل شيء في مفهوم المترفين ، وبهذا تفسد الفطرة ، وتستجيب النفس لكل مفسدة ، فقد يكون الانسان في الأصل صاحب خلق ودين إلا أن كثرة المال تعميه عن الكثير مما حوله ، فلا يرى إلا مايفكر فيه ، إذ يريد في البداية أن يقلد المترفين من أصحاب النقود من المجرمين الذين يحصلون على المال عن طريق الربا والاحتكار ، والزعامة ، وعن طريق القمار والزنا والمحركا كلها ..

يريد أن يقلدهم بما يملك مباهاة وتفاخرا ، فيأتي بالخدم ، ويملأ

---

(١) التاريخ الاسلامي ٩ /١٤٦ ، ١٤٧ .

بيته بهم نساء ورجالا ، ويعميه المال وتعميه المباهاة ، فلا يعرف ماذا يتم بين هؤلاء الخدم ولا يعلم ماذا يتم بين شبابهم ونسائه ، ولا بين نسائهم وشبابه ، فهذه غرائز أودعها الله في النفس البشرية .

ومن ثم يصيب البيت العفن ولا يدري ، وينخر فيه السوس ولا يدري ، ويسبح فيه الدود ولا يدري ، ويصبح بؤرة للفساد وهو يظن أنه يحسن صنعا ، يقدم لأهله الراحة ، ويخدمهم ، وإذا أراد أن يترك ما هو فيه ويرجع إلى ما كان عليه عجز لأن أجسام أهله قد ترهلت فلم تعد تقوى على العمل ، ونفوس أبنائه لم تقبل العمل لأنها لم تتعود عليه(٢) .

وهناك أمر لابد من الاشارة إليه ، وهو أنه قد يكون هذا المترف من أصحاب السيادة وأصحاب المناصب الحساسة في الدولة ، ويقع من زوجته أو من بناته الفجور ، فيستمرىء ذلك ولا يستنكره ، وربما رضي به خوفا من كلام الناس .

ومنهم من يسمح لبناته بالسفر إلى خارج البلاد ، فلا تتحرك فيه الشهامة العربية فضلا عن الغيرة الاسلامية ، فيثق بهم ثقة عمياء ، فيقول أحدهم : دعهم يستمتعون بإجازتهم ، أو دعهم يرون الدنيا ... الخ .

مع أن أهله قد سافروا إلى بلدان إباحية ، فلا شك إنه ديوث يصدق عليه وصف الديوث ، والديوث معروف حكمه في الاسلام .

وهناك أنواع كثيرة من الدياثة غير الظاهرة التي يتساهل بها كثير من الناس وغالبا لا تتم هذه إلا عند المترفين .

فمن هذه النماذج عدم استنكار الزوج على زوجته إذا خرجت إلى

---

(٢) التاريخ الاسلامي ٩ /١٤٠ ، ١٤١ ، تأليف محمود شاكر .

السوق ، وهي قد لبست من الملابس ما يدعو الفساق إلى تتبعهما ، ووضعت من الأطياب ، أو من العطورات ما يكون بريدا إلى المعصية ، فلاشك أن من يرضى لزوجته هذا الحال فهو ديوث .

فكيف بهذا الرجل أن يوصف بغير هذا الوصف ..

ونريد أن نعود على قضية الخدم من سائقين وخادمات ..

فلا شك — كما سبق — إن وجودهم سبب من أسباب الدياثة ، فإن كان في أول الأمر صاحب البيت لا يعلم ، فلا شك أنه بمرور الوقت سوف يكون ديوثا ، وإلا فما تبريره لاذنه للسائق بأن يوصل زوجته إلى العمل أو إلى أى مكان ؟ فكيف أتت له الثقة من هذا الرجل بأنه أمين ، وكذلك الخادمات ، فنجد بعض الناس يترك الخادمة في البيت وحدها ، ويسافر ببعض أهله ، أو ربما يقومون بزيارة إلى أحد الأقارب ويتركون أحد أبنائهم أو أكثر في المنزل مع هذه الخادمة ، فيقع المحظور .

وسمعت أخا من الكويت يقص لي هذه القصة :

ان رجلا استقدم خادمة من الفلبين ، ومكثت مدة عنده ، والبيت فيه شاب قد بلغ الحلم ، وفي زيارة من الزيارات ترك الأهل الخادمة مع هذا الشاب فلما عادوا إلى المنزل وجدوا ما هالهم وألجم ألسنتهم ، وأعمى أبصارهم ، فقرروا عدم استخدام الخادمات ، وقاموا بإرسال الخادمة .

وهناك قصة لشاب عربي يقول إن هناك بعض الفتيات إذا انفردن بالسائقين طلبن منهم ما حرم الله .

وكل ذلك وغيره بلا شك ناتج عن الترف .

فالاسلام يحاربه وذلك بعدة صور منها عدم الحرص على المال ، والحث على الانفاق لأنها معادلة معروفة : أناس + غفلة + مال =

دمار للفرد والمجتمع ، ويساوي ترف .

وكل دولة ظهرت عليها علامات الترف آذنت بقرب زوالها .

والتاريخ ليس ببعيد ، فانظر إلى الروم والفرس ، وقبل ذلك اليونان والصينيون ، وبعد ذلك الدولة العباسية والدولة الأموية في الأندلس .

فأكاد أقول إن الترف هو معول الهدم ، في الأمم والأفراد ، وأى فساد أعظم إذا فسدت الفطر ، وأصبح الانسان حيوانا ، بل الحيوان أو لنقل بعض الحيوانات أكثر غيرة منه على زوجه .

التكـــبر :

وهذا المرض ناتج من إصابة الانسان بالترف ، فالمصاب بالترف متكبر على الله وعلى عباده .

فمن أمثلة تكبره على الله زعمه أن ما أعطى من مال هو من كسبه ، أو بسبب علمه ، كما حدث ذلك من قبل لقارون عندما قال : ﴿**إنما أوتيته على علم عندي**﴾ وبذلك أنكر نعمة الله وكفر بها ، والكبر هو الذي أخرج إبليس من الجنة عندما قال : ﴿**أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾ ، فالكبر على الله وعلى أوامره من أشد أنواع الكبر .

أما الكبر على عباد الله فهو ممقوت بأى شكل من الأشكال ، وقد بين القرآن صورا للكبر والمتكبرين .

فمنها قوله تعالى : ﴿**ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور**﴾[1]

وقال في آية أخرى ناهيا عن سلوك مسلك أهل الكبر : ﴿**واقصد**

---

(١) سورة لقمان ، الآيتان ١٨ ، ١٩ .

في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾[1] .

وفي آية أخرى : **﴿إن لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾** .

وقال ﷺ : **(ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر)** عن حارثة بن وهب رضي الله عنه ، والحديث متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله — ﷺ — قال : **(لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره بطرا)** متفق عليه .

وعنه — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : **(بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مرجل رأسه يختال في مشيته إذا خسف الله به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة)** متفق عليه .

وعن سلمة بن الأكوع — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : **(لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم)** رواه الترمذي وقال حديث حسن[2] .

فهذه الآثار وغيرها قد بينت أوصاف المتكبرين ، ويبين بعضها مصير هذا المتكبر وأنه إلى بوار ، فعلام يتكبر هذا المغفل ؟ ألم يعمل انه مان نطفة من مني يمنى ؟ **﴿قتل الانسان ما أكفره . من أى شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره ....﴾**[3]

فهذا المتكبر وهذا هو حاله ، وتلك هي عاقبته ، وكل ذلك ناتج عن كثرة النعم مع نسيان المنعم ، فاللبيب من كان لنفسه طبيب ،

---

(٢) جميع هذه الآثار أخذتها من كتاب رياض الصالحين ص ١٨٣ دار العربية .

(٣) سورة عبس ، الآيات ١٧ — ٢١ .

وابتعد عن كل ما يشين ويعيب .

ولا يفوتني في ختام هذا المبحث أن أذكر صفة أخرى من صفات المتكبرين وهي التشدق في الكلام عند الناس ، وذلك أن يتكلم بملء فيه تفاصحا وتعظيما لكلامه ، ويقرب من هذا الخلق الذميم التفهيق بالكلام ، وهو أن يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه ، ويقرب به تكبرا وارتفاعا وإظهارا للفضيلة على غيره .

وهذا أولا وآخر نتيجة من نتائج الترف ومحصلة من محصلاته ، وعاقبة من عواقبه .

الفصل الرابع

نماذج لبعض المترفين في السابق واللاحق

وهذا قارون واحد من أقارب موسى أغناه الله فأطغاه الغنى ، وأرداه وبغى ، ﴿إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ وآتاه مالا كثيرا ، فكنزه في الخزائن وكثرة لديه الخزائن ، حتى إن مفاتيحها كثرت كثرة أعجزت الأقوياء عن حملها والاحتفاظ بها .

وفرح قارون بغناه فرحا شديدا ، وطغى وبغى وتعالى على الناس ، وأهدر كرامتهم وسخر الفقراء وسخر منهم وحملهم على منافقته .

ولقد كان قارون إقطاعيا ضرب المثل الشنيع للاقطاع والاقطاعيين ، اغتنى من عرق الكادحين ، وسمّن جسمه من دماء الفلاحين ، واكتظت خزائنه من هزل المساكين ، وعاش هو على فناء الآخرين .

فأذلهم بفقرهم ، واستبدهم بضعفهم ، وتكبر عليهم وتجبر فيهم ، وظن أنه سيخرق الأرض ويبلغ الجبال طولا .

وافترى على غناه حتى لم يكتف بالقصر الواحد ، فبنى القصور ، ولم يكتف بالقصر المحدود الغرف ، فبنى قصر لابيرنت في الفيوم بثلاثة آلاف حجرة عداء الأبهاء والشرفات والأفنية والأحواش والحدائق والبساتين والأسوار والأنهار ، وما تزال إلى يومنا هذا آثار قصره في إقليم الفيوم تعتريها معاول الحفارين من طلاب الآثار .

ها هي ذي بركة قارون ما تزال شاهدة على غناه مخلدة ذكراه .

وقد ادعى أن هذا المال هو أوتي بسبب علمه وهذا كذب وافتراء ، لأنه لو صح ذلك ، فإن العلم الصحيح يوسع العقل وينميه ، ويرقق القلب ويزكيه ، ويلطف العاطفة ، ويهذب النفس الجامحة ، ويخضد شوكة الكبر ، ويمزق حجب الغرور ويقي صاحبه مصارع الحمقى) من قصص القرآن ص ١٣٧ بتصرف .

وغري،ة العناد وليدة ضيق الفكر وتصلب العقل ، ودليل على أن المعاند فقد موهبة التفاهم والاقتناع ، وأنه انحط إلى مرتبة الحيوان

الجامح الحرون الذي يهيح في راعيه ، لا يبالي هل آذاه أم آذى نفسه ...) نفس المرجع ص ١٣٨ .

وان الله ليملي للظالم ، ويمد له حبال عصيانه ، ويكثر عليه من مباهج حياته ، ويغريه بحلو أمانيه وآماله حتى إذا أخذه لم يفلته .

وقد أخذ الله قارون بالخسف ، فاندك قصره وقصوره ، وغاصت في الأرض خزائنه وتبخرت كبخار الماء أمواله ، وراح سلطانه كما يروح الليل والنهار ، وارتجب القلوب من هول ما وقع عليه ...) المرجع السابق ص ١٤٠ مكتبة غريب .

قال تعالى : ﴿**فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا ان من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين**﴾[1] .

قـوم عـــاد :

وهذا نموذج آخر من المترفين (فقد عاش في جنوب الجزيرة العربية ناس كانوا في نعيم وفي عز وترف وبسطة في الأجسام والأموال) .

أجسام قوية متينة البنية ، وصحة ، وعافية ، وخير وفير ، وجنات وبساتين ، ودور وقصور ذات أعمدة فارهة الطول ، بل إنهم نحتوا من الجبال بيوتا ، ومن مجاري المياه ومساقطها مشروعات وخزاناتات تمكينا للحياة وتوطيدا للترف ، وتأمينا من تقلبات الأمم ، أقاموا قوة

---

(١) سورة القصص ، الآيات ٨١ ــ ٨٣ .

واقتدارا وأبهة وافتخارا وعبثا في الأرض وفسادا .

قوم عاد ، ارم ذات العماد التي لم لخلق مثلها في البلاد ، وزعموا أن شداد من قوم عاد سمع بالجنة فأخذته العزة بالاثم ، وأبى إلا أن يبني لنفسه جنة في الدنيا تضارع جنة الآخرة ، وبناها في رمال عدن ، وسماها ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد .

ما رأى التاريخ مثل ما رأوا ، ولا سعد ناس كما سعدوا ، ولا أترف خلق كما أترفوا ولكنهم ضلوا وتاهوا عن الله ، وعبدوا الأصنام والتماثيل ، واتخذوها آلهة يعبدونها ، من دون الله ، كفروا وأشركوا وجحدوا ما هم فيه من نعمة ، فاستحقوا العقاب والنقمة ، **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾**(٢)

كذلك كان قوم عاد مع نبيهم هود .

أرسل الله إليهم نبيا منهم ، ليس غريبا عنهم ، وهو طيب في خلقه ، محمود في سيرته ، متمسك بدينه ، حكيم في تصرفه ، حليم على من يؤذيه ، وهو قلب رحيم ، وعاطفة سامية(٣) .

ومع ذلك كفروا فحق عليهم العذاب .

يقول الحق في ذلك : **﴿ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة إلا ان عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود﴾**(٤)

---

(٢) سورة الاسراء آية ١٦ .

(٣) من قصص القرآن ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) سورة هود ، الآيات ٥٨ ــ ٦٠ .

وهذه عاقبة كل من كفر بنعمة الله وجحدها وألهاه الترف عن ذكر الله ، وسنة الله لا تحابي ، فهي سائرة في جميع الأشياء ، وعلى جميع الأشخاص .

إن المفاضلة عند الله للشكور ، ولكن عبد اجتنب طريق الشرور والفجور ، وأصلح أمره وحاله في جميع الأحوال والأمور ، ولم يغتر بداعي الغرور .

إن الأجل قريب ، والنجاة لا تتم إلا لمن سلك مسلك النبي الحبيب ، فذلك والله هو اللبيب ، فأعظم به من حظ ونصيب .

سبأ :

وهذا نموذج آخر من المترفين الذين منّ الله عليهم بالخير العميم ، والرزق الوافر ، والنعمة الكثيرة ، والرخاء الممدود ، ولكنهم اشتغلوا بهذه النعمة عن ماخلقوا من أجله ، وعملوا كما عمل أسلافهم من قبل ، فنسوا المنعم واشتغلوا بالنعم ، وقد بلغوا من الرخاء حدا لا يكاد يصفه أحد إلا من أعطاهم تلك النعم ، وهو الخالق ، فيحكي الله عنهم وما أصابهم من نعم في أول الأمر ثم يبين بعد ذلك أنهم لم يشكروا ، بل انشغلوا بهذه النعم ، وبالتفاخر بها عن شكر الله وعن طاعته ، فيبين عاقبتهم ، وهذه عاقبة كل متكبر معرض غافل عن الله فيقول جلّ وعلا :

﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازي إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ،

. **وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالي وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ، فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾**(٥)

فالمفروض أن تكون النعم عونا على طاعة الله ، لا عونا على معصيته .

أمثلة لبعض المترفين في هذا العصر :

إن الترف ــ كما سبق ــ ناشيء عن كثرة النعم مع البعد عن منهج الله ، وقد وجد في هذا الزمان صوى شتى ، وأحوال متنوعة في الترف .

فمن أمثلة المترفين في هذا العصر ما يلي :

١ ــ ملك إيران السابق . فقد كان يعيش في حياة قد ملئت بكل ما يلهي ، ويطغى ويصرف عن الله ، لدرجة أني سمعت أنه كان يملك حماماً من ذهب . وبالاضافة إلى ذلك فقد كان يملك أقوى جهاز للمخابرات وأجهزة التصنت ، ولكن الله يغار على نعمه ، فلما جاء أمر الله انتزعه الله من قصوره ودوره ، وجعله شريدا طريدا منبوذا من جميع الناس ، فأخذ ينتقل من مدينة إلى مدينة ، ثم مات أخيرا في مصر ، وزال عنه ملكه وأصبح أبناؤه يستجدون الاحسان من بعض الدول .

٢ ــ رئيس الفلبين : فهذا كسابقه ، فقد كان يعيش عيشة الترفيه ، وكان له العديد من القصور والخدم والحشم ، وله المال المرصود له في عدد من البنوك .

ولكن الله لا يغفل عن المسرفين ، فهذا هو الآن في جور البهاما ،

---

(٥) سورة سبأ ، الآيات ١٥ ــ ١٩ .

شريدا طريدا ، أخرجه قومه وشعبه من الفلبين في صورة كريهة ، فقد خرج خلسة من بلده فرار بحياته ، ولم تغن عنه قواته الخاصة والعامة ولا جيشه ، ولم تغن أمواله .

فلا شك أنه يعيش في عذاب مستمر ، لأن من تعود على النعمة لا يستطيع الاستغناء عنها ، فلو نظرنا إلى دولته وما حل فيها نجد أنها قد أثقلت بالديون ، وما ذلك إلا بسبب تصرفاته الهوجاء ، فهو قد أسرف في حق نفسه وأبناء شعبه ، وهذا جزاؤه في هذه الحياة ، والآخرة مصيره إلى الله .

٣ ــ شاب عربي .. معروف يعد أغنى رجل في العالم حسب الاحصائيات فهو يملك من الفلل والقصور ، في كل بلد قصر ، له جزيرة بأكملها في أفريقيا يملكها بجميع ما فيها ، وحولها أراضي يعجز الانسان أن يحصيها .

ويملك العديد من اليخوت والطائرات الخاصة المجهزة بكل وسائل المتع ، وله ملايين الدولارات في بنوك الغرب ... الخ .

ومع ذلك فهو سخي بهذه الثروة ومتلاف لها ، فتارة نجده يعطي أحد الممثلات قصرا من قصوره ، أو جواهر من جواهره ، وأخرى لراقصة رقصت معه ليلة .. إلى آخر تلك السفاهات ..

وأخير سمعت أنه مني بخسائر فادحة أدت إلى أن يحجز على طائرتين من طائراته ، وعلى بعض أمواله .

فقد جعل الله هذا الغنى وما أمده الله من خدم وحشم وسائقين ، كل ذلك جعله سببا في شقائه ، فهو يتعب في جمع الأموال ، ثم يصرفها فيما حرم الله ، فلا يستفيد ولا يفيد ، بل هو موعود بالعذاب الشديد والجزاء الرادع الأكيد وهذ مصير من أنكر يوم الوعيد ، وانساق وراء الشيطان المريد .

٤ ـــ أوناسيس : وهذا أيضا مثل سابقيه ، فقد أنعم الله عليه بواسع فضله ، ولكنه نسيه وغفل عن الله ، وأصبح همه الدنيا ، فلا يوصف إلا بأساطيل أوناسيس البترولية . فقد كان له عدد من الناقلات الضخمة ، وقد كان يملك العديد من اليخوت ، وكان يملك العديد من القصور وعشرات الخدم والأتباع ..

ولكنه ولى وذهب عنها ولم يستفد منها سوى التعب في رعايتها والسهر عليها .

وهكذا جميع المترفين ، فهم ان لم نقل الكل ، فإن بعضهم مصاب بعدد من الأمراض النفسية فتكون هي القاضية عليه .

وهذه الأمثلة السابقة على مستوى العالم ، وغيرهم كثير .

أما على المستوى المحلي ، فنجد العديد من الصور ، منها :

(أ) مثلا رجل وجد ، دعى أربعة رجال فقام وذبح لهم أربعا من الغنم .

(ب) وهذا آخر يدعو الناس إلى وليمة عرس ، فتكون النتيجة أن يذبح ثلاثمائة رأس من الغنم ، وثلاثين رأسا من الابل ، وما يقرب عشرة أكياس رز ، والمدعوون لا يبلغون المائتين .

وهذه النماذج توجد بكثرة عند أهل البادية ، حيث يختلط عندهم مفهوم الكرم بالاسراف والترف ، فهم يعتبرون السابق كرما وليس ترفا ، وينكرون على من ينكر عليهم صنعهم .

(جـ) ومن النماذج في الترف ما هو موجود في بيوتنا ، فنجد أن في كل غرفة مكيف ، وفي كل ناحية جهاز تلفزيون ، فربما يكون عدد الأجهزة مساويا لعدد الساكنين .

ومن ذلك ما يوجد عندنا الآن من كون البيت يقف عنده أربع أو خمس سيارات ، لكل شاب سيارة .

(د) ومن أمثلة الترف وجود الخياطين ، والقراصين ، والكوائين ، والغسالين ، والمطاعم ، فلا تكاد تمر على شارع حتى تراه محشوا بالعديد منهم .

فلا شك أن الصور السابقة أكبر دليل على الترف ، ولا تحتاج إلى كثير تعليق .

فهذا إنذار لنا ، إن لم ننته فيخشى علينا عاقبة ذلك ، فيمكن أن يكون هذا الشيء استدراجا من الله ، فإن النتيجة معلومة ، وقد إاهدنا ما حل بالسابقين واللاحقين من المترفين .

الخاتمـــة :

وبعد فإننا لا نملك في هذا البحث المجمل إلا أن نشير أن الترف لا يحصل للانسان إلا إذا ابتعد عن منهج الله وتجاوز توجيهاته السامية الداعية إلى الاعتدال الناهية عن البغي والاستغلال .

فالدنيا دار ممر وليست دار مقر ، وكل ما فيها أمانة مردودة إلى صاحبها سبحانه وتعالى ، فعلى الانسان أن يكون أمينا على ما أعطاه الله من رزق وفير ، وخير عميم ، ونعمة طائلة ، وسخاء واسع ، والحياة الدنيا قد اتسعت رقعتها بما استحدثته الحضارة من وسائل الحياة والمتاع والاستقرار في الأرض ، فكان حقا على الناس الشكر ، وليس الانكار والكفر .

ولو قام هذا كله على أساس من المعرفة بالله القائمة على أن الله جعل هذا الانسان خليفة ، وسخر له ما في الكون ، وزوده بالمواهب والاستعدادات التي تعينه على الخلافة ، ويسر له طيبات الحياة كلها ، وأنه مبتلي في هذا كله ليحاسب على ما قدم في حياته الدنيا .

لو قام هذا كله على هذا الأساس الصحيح لكانت الأنفس في أحسن حال وأفضل مآل .

فالحقيقة أن البشرية قد تعبت وتعبت من حمل هذه الحضارة المادية في متاعها المترف ، وحقيقة أن الفساد والانحلال والأمراض العصبية والنفسية والشذوذ العقلي والجنسي وآثار ذلك كله تنخر في جسم هذه الحضارة ، وتشقي الأمم والأفراد ، وتفتح الأعين بعنف على الشر والفساد والدمار .

وخلص إلى القول أنه تبين ــ بفضل الله ــ بعد هذا البحث عدة نتائج أو آثار للترف ، منها ما يكون ضرره خاصا بالفرد ، ومنها ما يكون خاصا بالأمة .

فمن هذه النتائج ما يلي :

١ ــ الغفلة ، وهذا متحقق على مستوى الفرد ، وعلى مستوى الجماعة ، فالناس أفرادا وجماعات أصبح همهم هذه الحياة الدنيا والتمتع بما فيها والحرص عليها أيما حرص ، فأصبحون يتبعون في تحصيلها كل مسلك ، ويستبيحون كل طريق مادام موصلا إلى غايتهم ولو كان هذا الطريق مجانبا للصواب ، بعيدا عن الهدى ، موصلا إلى شر مآب .

فنتج عن ذلك البعد عن الله ونسيانه فأنساهم أنفسهم وكسبهم ، فأصبح الفرد منهم لا يتأثر عندما تقع منه الخطيئة ، بل هو متبلد الشعور ، فاقد الاحساس ، منعدم الثقة ، غير منضبط التصرفات ، فهو متقلب لا تعرف له حقيقة ولا خيال ، فهو عاش وليس بعائش ، لأن من ابتعد عن منهج الله فهو محكوم عليه بالعدم .

وأكثرهم مصاب بالأمراض النفسية ، وأعظمها الوهم ، فهو يتوهم في كل لحظة أنه سيفقد هذا المال ، فهو لا ينفك في هذا

الشعور ، ويبذل كل جهده لتحصيل هذا المال لأنه أصبح همه وشغله ، فنسأل الله السلامة .

٢ ــ ضعف الأمم والشعوب : فهذا الشيء مشاهد ، فإن انتشار الترف في أمة من الأمم إيذان بزوالها وقبل ذلك إيذان بضعفها وقرب اندثارها ، فهذه سنة من سنن الله في الوجود ، قال تعالى : ﴿**حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون**﴾[١] .

وسنن الله لا تحابي ولا تجامل ، فهي ماضية فينا كما مضت في أسلافنا ، ومن أمثلة ذلك في السابق قوم عاد وثمود وسبأ ، وفرعون ، وقارون ، والروم ، والفرس ، وغيرهم كثير ، وفي الوقت الحاضر بل قبله بسنوات روسيا القيصرية ، وأوروبا وخاصة بريطانيا ، الجميع سقط ..

وقبل بضع سنين ما حدث لملك إيران ، ورئيس برتريكو ، ورئيس كوبا وغيرها كثير . وإن لم نراقب الله فنخشى أن يصيبنا ما أصاب أولئك .

ومن ناحية أخرى فإن الترف يضعف المقاومة ، فتكون الأمم نهبا لكل طامع ، كيف لا ، والحال هذه .

ولا أدل على ذلك مما نحن فيه من سلب ديار المسلمين وسرقة أموالها وانتهاك أعراضها ، وذلك ناتج عن الركون للنعم والترف ، فأصبح من الصعب مقاومة الأعداء .

فهذا ما يتمناه أعداؤنا ويسعون لتحقيقه بشتى الوسائل ، ومنها إغراق المجتمعات الاسلامية بسائر وجوه الشهوات ، وليس هناك ذل أشد مما نحن فيه ، فكيف لأسلاف القردة والخنازير أن يحصل لهم هذا التمكين إلا بسببنا ، وذلك الأمر قد خطط له سلفا عندما وضع

---

(١) سورة المؤمنون ، آية ٦٤ .

الصهاينة في مخططاتهم للقضاء على العالم ، ونحن منه ، فهناك بند منها يدعو إلى إغراق الأمم بالشهوات والملذات ، وإشغالهم عن هدفهم الحقيقي بشتى الملهيات من إذاعة وتلفزيون وسينما وفديوهات ومجلات وصحف ومسارح ودور لهو ....

٣ ــ انتشار الدياثة : وقد حصل هذا الشيء في مجتمعات المترفين ، فلا أدل على ذلك ما هو ملاحظ من عدم الغيرة الأهل من السائقين وهم كثير لا كثّرهم الله .

فأين الوازع الديني وأين خوف الله ، فلا شك أن من يأتي بهؤلاء السائقين يحق عليه لقب الدياثة ، لأنه لن يستمر في مراقبة أهله ، فربما يكون أحدهما عفيف والآخر عكس ذلك ، فمع الاستمرار يقل الوازع الديني ، وتحدثه النفس الامارة بالسوء ، وتحدث المرأة نفسها الأمارة بالسوء ، سواء كانت المرأة زوجة أو بنتا ، فما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما.

ويصبح هذا المسكين ــ طاحب الدار أو رب الأسرة ــ متبلد الاحساس فاقد الضمير والوجدان ، قد نزعت منه جميع دوافع الرجولة الحقة ، وأصبح لا يغار على نسائه ، فيكون أضل من الحيوان ، لأن بعض الحيوانات تغار على إناثها ..

فهذا المترف قد يرى الدنية في أهله ولا ينكر خوفا من الفضيحة في المجتمع ، ويسكت على هذا الوضع فيصدق عليه لقب «ديوث» .

ومن الدياثة غير الظاهرة ما نراه من إقرار بعض الرجال لنسائه بالسماح لهن بالخروج من البيت ، وقد توشحن بجميع المحسنات الصناعية ...

نسأل الله السلامة ...

٤ ــ أمن مكر الله ..

ويتم ذلك بالتكبر على عباد الله ، ونسيانه إنه تحت تصرف الله وغير منتقل عن ملكه .

فهذا المترف مصاب بالكبر والغطرسة والتعالي على عباد الله ، ونسي أن الله فوقه وهو أعلى منه وأقوى وأعظم ، فيصاب بمرض الكبر ، وهذا المرض أهلك أمما كثيرة لا يمكن أن نحصيها ..

فمنها قوم عاد الذين قالوا : من أشد منا قوة ..

ومنها قارون . وهذا فرد من أمة عندما اغتر بماله .

وأيضا فرعون ، عندما طلب أن يبني له بناء عاليا ، لعله يرى الله كما يزعم فكلاهما قد هلك بكبره وسقط بطغيانه ، وخسر الخسارتين ، لأنه أمن مكر الله ومن يأمن مكر الله فقد حكم على نفسه بالبوار ، وجعل عاقبته إلى خسار .

وهناك آثار كثيرة لا يمكن حصرها .

وخلاصة البحث أن الترف سبب للخسارتين ، وأن اتباع منهج الله سبب للفلاحين .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المصـــادر والمراجـــع

١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ كتب التفسير.

٣ ــ كتاب : أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب ، تأليف : محمد محمود الصواف .

٤ ــ كتاب : الحياة الروحية في الاسلام . تأليف محمد مصطفى حلمي .

٥ ــ التصوف الاسلامي ، تأليف أحمد توفيق عياد .

٦ ــ التاريخ الاسلامي ، تأليف : محمود شاكر جـ ٨ .

٧ ــ احياء علوم الدين ، تأليف : محمد الغزالي ، أبو حامد جـ ٣ ، ٤ .

٨ ــ من أخلاق القرآن ، تأليف محمد عبد الله دراز .

٩ ــ قصص من القرآن ، تأليف محمود زهران .

١٠ ــ فوائد قرآنية ، تأليف : عبد الرحمن السعدي .

١١ ــ رياض الصالحين ، تأليف : يحي بن رف النووي .

١٢ ــ الزهد . تأليف أحمد بن حنبل .

١٣ ــ مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية . جـ ٢ .

١٤ ــ المعجم المفهرس لأحاديث الرسول الكريم . تأليف جماعة من المستشرقين .

محتويات الكتاب